الفصل الثالث والعشرون

بعد اللحظات الأولى لرؤية إسراء ابنة إبراهيم ومريم نور الحياة، لاحظت أن أمي تخصها بحب خاص وعناية خاصة أكثر بكثير مما كانت تخص به أولاد محمود وحسن، لم أدر ما هو السبب وراء ذلك الحب الخاص، ولعله نابع من عاطفتها الخاصة تجاه إبراهيم، منذ أن ألقي في حجرها لتتولى هي تربيته، مثل أي واحد منا، وزاد ذلك الحب أنها كذلك حفيدتها من ابنتها، فكأنها حازت حبين مما حازه أي من الأحفاد الآخرين، لذلك حاز الواجد حباً كونه ابن ابنها، أو ابن ابنتها. ولكن إسراء كانت ابنة ابنتها وابنة ابنها كذلك، وللحق فلولا حبي الخاص واحترامي الفائق لإبراهيم، وقناعتي أنه يستحق ذلك الحب لحسدته على ما توليه له أمي من حب وحرص، رغم أنه ليس ابنها مثلي.

كانت كثيراً ما تأخذها بين ذراعيها، وتبدأ تهزها وتلاعبها، وهي ترتجل الغناء الذي اعتادت النسوة على ترديده، وهن يهززن سرر الأطفال، ليناموا أو ليكفوا عن البكاء، وكثيراً ما كانت تردد الازمة، (هاتي منديلي يا واقفة على الباب...هاتي منديلي، لارجع عابلادي يا واقفة على الباب...لارجع عابلادي...واشوف حبابي ياواقف على الباب...واشوف حبابي) وتستمر في الارتجال على هذا الوزن والغناء.

ولكن بعد ذلك الموقف الذي كان مع إبراهيم، استبدلت كلمة منديلي في غنائها بكلمة البارودي فصارت تغني دوماً بلازمة (هاتي البارودي يا واقفة على الباب... هاتي البارودي، أحرر بلادي يا واقفة على الباب...أحرر بلادي، يا عز احبابي يا واقفة على الباب...يا عز احبابي).

كنت أحب تلك الأهازيج التي تغنيها أمي، وكنت أشعر أنها تنفث من خلال آمالها وأحلامها وآمالنا وأحلامنا جميعاً، فكنت كثيراً ما أصعد للطابق الثاني بعد أن أجد المبرر وأحضر لها إسراء، لتبدأ بنشيدها وأنا أتسمع لها، وأدع الكلمات تداعب روحي، وخاطري متظاهراً بالانشغال بشيء أفعله أو كتاب أقرأه.

إبراهيم يجلس مع عدد من الشبان بينهم عماد، يخططون لمهاجمة أحد مصانع تعبئة الخضراوات وتغليف الفواكه شرق الشجاعية، هناك يعمل ا لعشرات من العمال العرب تحت إمرة صاحبي المكان اليهوديين اللذين يشعران بالأمان والطمأنينة.